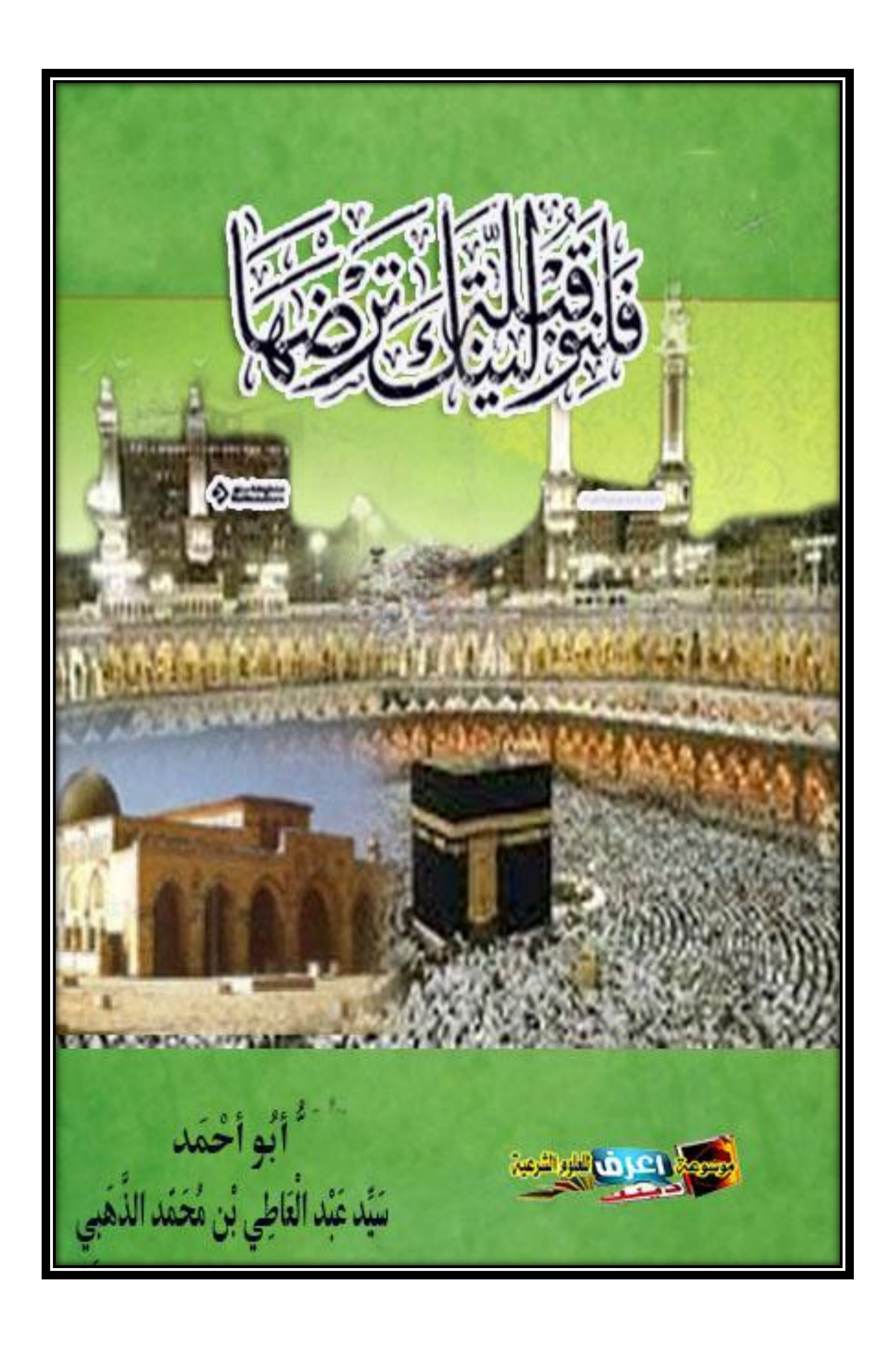

فلنولينك قبلة ترضاها
موسوعة اعرف للعلوم الشرعية
أبو أحمد
سَيِّد عَبْد العَاطِي بْن مُحَمَّد الذَّهَبِي

بسم الله الرحمن الرحيم

فلنوقف الفتاوي ولنبدأ التربية

أبو أحمد

سيد عبد العاطي بن محمد الذهبي

نشر إلكتروني وتنسيق

موسوعة اعرف دينك للعلوم الشرعية



الْحَمْدُ لِله رَبِّ الأَرْبَابِ، وَمُجْرِي السَّحَابِ، وَهَازِمِ الأحْزَابِ، وَمُنَزِّلِ الْكِتَابِ، وَمُسَبِّبِ الأسْبَابِ، وَخَالِقِ الْبَحْرِ العُبَابِ، بَثَّ فِي الْكَوْنِ آيَاتِ عَظَمَتِهِ لِيَتَدَبَّرَ وَيَتَّعِظَ أُولُواالأَلْبَابِ،وَعَدَ عِبَادَهُ

الصَّالِحِينَ الْمُتَّقِينَ عَظِيم الثَّوَابِ،وَتَوَعَّدَ الْمُعْرِضِينَ

الْمُعَانِدِينَ بِأَلِيمِ الْعِقَابِ وَأَشْهَدُ أَن لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ لا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا ظَهَرَ لِلأَعْيُنِ وَمَا عَنْهَا غَابَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا وَحَبِيبَنَا مُحَمَّداً عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى الآلِ وَالأَصْحَابِ.

أَمَّا بَعْدُ:

•فَبَيْنَ يَدَيْكَ يَا طَالِبَ الْعِلْمِ–رَحِمَنِي اللَّهُ وَإِيَّاكَ–رِسَالَةٌ مُخْتَصَرَةٌ عَنْ حَادِثَةٍ فَارِقَةٍ فِي تَوْجِيهِ مَسِيرَةِ الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ وَبَيَانِ تَكْرِيمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لِنَبِيِّهِ الْأَمِين مُحَمَّدٍ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَلأُمَّتِهِ،

وَهَتْكِ سَرَائِرِ الْحَاقِدِينَ وَالْمُرْجِفِينَ،وَالتَّدْلِيلِ عَلَى صِدْقِ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ،وَصِدْقِ اسْتِجَابَةِ الصَّحَابَةِ–رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ–لأَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–،وَبَيَانِ مَنْزِلَةِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ،وَقَدْ عَنْوَنْتُ لَهَا بِهَذَا الْعُنْوَانِ{فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا}.

•وَمِنَ الْمَعْلُومِ أنَّ الْمَوْضُوعَاتِ الْمُهِمَّةَ لَابُدَّ لَهَا مِنْ تَمْهِيدٍ فَأَقُولُ مُمَهِّدًا:

•إنَّ اللهَ تَعَالَى مُنْفَرِدٌ بِاخْتِيَارِ مَنْ يَخْتارُهُ وَيَخْتَصُّهُ مِنَ الْأَشْخَاصِ وَالْأَوَامِرِ وَالْأَزْمَانِ وَالْأَمَاكِنِ،قَالَ اللهُ تَعَالَى:{وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ}.(القصص:٦٨).

–قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ–رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى–فِي تَفْسِرِهَا:{هَذِهِ الْآيَاتُ، فِيهَا عُمُومُ خَلْقِهِ لِسَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَنُفُوذُ مَشِيئَتِهِ بِجَمِيعِ الْبَرِيَّاتِ ، وَانْفِرَادُهُ بِاخْتِيَارِ مَنْ يَخْتارُهُ وَيَخْتَصُّهُ،مِنَ الْأَشْخَاصِ، وَالْأَوَامِرِ وَالْأَزْمَانِ وَالْأَمَاكِنِ، وَأَنَّ أَحَدًا لَيْسَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ وَالاخْتِيَارِ شَيءٌ، وَأَنَّهُ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ مَا يُشْرِكُونَ بِهِ،مِنَ الشَّرِيكِ، وَالظَّهِيرِ،وَالْعَوِينِ،وَالْوَلَدِ، وَالصَّاحِبَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، مِمَّا أَشْرَكَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ}.



•وَقَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ–رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى–فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ فِي كِتَابِهِ الْقَيِّمِ الْمَوْسُومِ ب(التَّفْسِيرِ الْقَيِّم):{وَإِذَا تَأَمَّلْتَ أَحْوَالَ هَذَا الْخَلْقِ، رَأَيْتَ هَذَا الِاخْتِيَارَ وَالتَّخْصِيصَ فِيهِ دَالًّا عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ تَعَالَى وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَكَمَالِ حِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَأَنَّهُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَلَا شَرِيكَ لَهُ يَخْلُقُ كَخَلْقِهِ، وَيَخْتارُ كَاخْتِيَارِهِ، وَيُدَبِّرُ كَتَدْبِيرِهِ، فَهَذَا الِاخْتِيَارُ وَالتَّدْبِيرُ وَالتَّخْصِيصُ الْمَشْهُودُ أَثَرُهُ فِي هَذَا الْعَالَمِ مِنْ أَعْظَمِ آيَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، وَأَكْبَرِ شَوَاهِدِ وَحْدَانِيَّتِهِ، وَصِفَاتِ كَمَالِهِ، وَصِدْقِ رُسُلِهِ، فَنُشِيرُ مِنْهُ إِلَى يَسِيرٍ يَكُونُ مُنَبِّهًا عَلَى مَا وَرَاءَهُ دَالًّا عَلَى مَا سِوَاهُ.

فَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ سَبْعًا فَاخْتَارَ الْعُلْيَا مِنْهَا فَجَعَلَهَا مُسْتَقَرَّ الْمُقَرَّبِينَ مِنْ مَلَائِكَتِهِ، وَاخْتَصَّهَا بِالْقُرْبِ مِنْ كُرْسِيِّهِ وَمِنْ عَرْشِهِ، وَأَسْكَنَهَا مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، فَلَهَا مَزِيَّةٌ وَفَضْلٌ عَلَى سَائِرِ السَّمَاوَاتِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا قُرْبُهَا مِنْهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَهَذَا التَّفْضِيلُ وَالتَّخْصِيصُ مَعَ تَسَاوِي مَادَّةِ السَّمَاوَاتِ مِنْ أَبْيَنِ الْأَدِلَّةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ،وَأَنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ.

وَمِنْ هَذَا تَفْضِيلُهُ سُبْحَانَهُ جَنَّةَ الْفِرْدَوْسِ عَلَى سَائِرِ الْجِنَانِ، وَتَخْصِيصُهَا بِأَنْ جَعَلَ عَرْشَهُ سَقْفَهَا، وَفِي بَعْضِ الْآثَارِ:(إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ غَرَسَهَا بِيَدِهِ وَاخْتَارَهَا لِخِيرَتِهِ مِنْ خَلْقِهِ).

وَمِنْ هَذَا اخْتِيَارُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُصْطَفَيْنَ مِنْهُمْ عَلَى سَائِرِهِمْ، كَجِبْرِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، وَكَانَ النَّبِيُّ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ:(اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).

فَذَكَرَ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِكَمَالِ اخْتِصَاصِهِمْ، وَاصْطِفَائِهِمْ، وَقُرْبِهِمْ مِنَ اللَّهِ، وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ غَيْرِهِمْ فِي السَّمَاوَاتِ، فَلَمْ يُسَمِّ إِلَّا هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ. فَجِبْرِيلُ: صَاحِبُ الْوَحْيِ الَّذِي بِهِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ وَالْأَرْوَاحِ، وَمِيكَائِيلُ: صَاحِبُ الْقَطْرِ الَّذِي بِهِ حَيَاةُ الْأَرْضِ وَالْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ، وَإِسْرَافِيلُ: صَاحِبُ الصُّورِ الَّذِي إِذَا نَفَخَ فِيهِ أَحْيَتْ نَفْخَتُهُ بِإِذْنِ اللَّهِ الْأَمْوَاتَ، وَأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ قُبُورِهِمْ.



وَكَذَلِكَ اخْتِيَارُهُ سُبْحَانَهُ لِلْأَنْبِياءِ مِنْ وَلَدِ آدَمَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهُمْ مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا، وَاخْتِيَارُهُ الرُّسُلَ مِنهُمْ، وَهُمْ ثَلَاثُمِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ، عَلَى مَا فِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ الَّذِي رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَابْنُ حِبَّانَ فِي (صَحِيحِهِ)، وَاخْتِيَارُهُ أُولِي العَزْمِ مِنْهُمْ، وَهُمْ خَمْسَةٌ الْمَذْكُورُونَ فِي سُورَةِ (الْأَحْزَابِ) وَ(الشُّورَى) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ}.(الأحزاب: ٧)، وَقَالَ تَعَالَى: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ}.(الشُّورى: ١٣)،وَاخْتَارَ مِنْهُمُ الْخَلِيلَيْنِ إِبْراهِيمَ وَمُحَمَّدًا- صَلّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَآلِهِمَا وَسَلَّمَ-.

وَمِنْ هَذَا اخْتِيَارُهُ سُبْحَانَهُ وَلَدَ إِسْمَاعِيلَ مِنْ أَجْنَاسِ بَنِي آدَمَ، ثُمَّ اخْتَارَ مِنْهُمْ بَنِي كِنَانَةَ مِنْ خُزَيْمَةَ، ثُمَّ اخْتَارَ مِنْ ولَدِ كِنَانَةَ قُرَيْشًا، ثُمَّ اخْتَارَ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، ثُمَّ اخْتَارَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ سَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ مُحَمَّدًا- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- .

وَكَذَلِكَ اخْتَارَ أَصْحَابَهُ مِنْ جُمْلَةِ الْعَالَمِينَ، وَاخْتَارَ مِنهُمُ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ، وَاخْتَارَ مِنْهُمْ أَهْلَ بَدْرٍ، وَأَهْلَ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ، وَاخْتَارَ لَهُمْ مِنَ الدِّينِ أَكْمَلَهُ، وَمِنَ الشَّرَائِعِ أَفْضَلَهَا، وَمِنَ الْأَخْلَاقِ أَزْكَاهَا وَأَطْيَبَهَا وَأَطْهَرَهَا.



وَاخْتَارَ أُمَّتَهُ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ، كَمَا فِي (مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ) وَغَيْرِهِ مِنْ حَدِيثِ بَهْزِ بْنِ حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:(أَنْتُمْ مُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ).

قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ وَأَحْمَدُ: حَدِيثُ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ صَحِيحٌ.

وَظَهَرَ أَثَرُ هَذَا الِاخْتِيارِ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَأَخْلَاقِهِمْ، وَتَوْحِيدِهِمْ، وَمَنَازِلِهِمْ فِي الْجَنَّةِ، وَمَقَامَاتِهِمْ فِي الْمَوْقِفِ، فَإِنَّهُمْ أَعْلَى مِنَ النّاسِ عَلَى تَلٍّ فَوْقَهُمْ يُشْرِفُونَ عَلَيْهِمْ، وَفِي التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:(أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ، ثَمَانُونَ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ)قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. وَالَّذِي فِي(الصَّحِيحِ) مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-فِي حَدِيثِ بَعْثِ النّارِ(وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ)وَلَمْ يَزِدْ عَلَى ذَلِكَ.

فَإمّا أنْ يُقَالَ: هَذَا أصَحُّ، وَإمّا أنْ يُقَالَ: إنَّ النَّبِيَّ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– طَمِعَ أنْ تَكُونَ أُمَّتُهُ شَطْرَ أهْلِ الجَنَّةِ، فَأعْلَمَهُ رَبُّهُ فَقَالَ:(إنَّهُمْ ثَمَانُونَ صَفًّا مِنْ مِائَةٍ وَعِشْرِينَ صَفًّا)، فَلَا تَنَافِيَ بَيْنَ الحَدِيثَيْنِ، وَاللَّهُ أعْلَمُ.

وَمِنْ تَفْضِيلِ اللَّهِ لِأُمَّتِهِ وَاخْتِيارِهِ لَهَا أنَّهُ وَهَبَهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِلْمِ مَا لَمْ يَهَبْهُ لِأُمَّةٍ سِوَاهَا، وَفِي (مُسْنَدِ الْبَزَّارِ) وَغَيْرِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: سَمِعْتُ أبَا القاسِمِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–يَقُولُ:(إنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ: إنِّي بَاعِثٌ مِنْ بَعْدِكَ أُمَّةً إنْ أصَابَهُمْ مَا يُحِبُّونَ حَمِدُوا وَشَكَرُوا، وَإنْ أصَابَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ احْتَسَبُوا وَصَبَرُوا، وَلَا حِلْمَ وَلَا عِلْمَ، قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ هَذَا وَلَا حِلْمَ وَلَا عِلْمَ؟ قَالَ: أُعْطِيهِمْ مِنْ حِلْمِي وَعِلْمِي).(والحَدِيثُ ضَعَّفَهُ الشَّيْخُ الْألْبَانِيُّ فِي السِّلْسِلَةِ الضعِيفَةِ:٤٩٩١،٤٠٣٨).



–وَمِنْ هَذَا اخْتِيَارُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ الْأمَاكِنِ وَالْبِلَادِ خَيْرَهَا وَأشْرَفَهَا، وَهِيَ الْبَلَدُ الْحَرَامُ، فَإنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اخْتَارَهُ لِنَبِيِّهِ– صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَجَعَلَهُ مَنَاسِكَ لِعِبَادِهِ، وَأوْجَبَ عَلَيْهِمُ الْإتْيَانَ إلَيْهِ مِنَ الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، فَلَا يَدْخُلُونَهُ إلَّا مُتَواضِعِينَ مُتَخَشِّعِينَ مُتَذَلِّلِينَ كَاشِفِي رُءُوسِهِمْ مُتَجَرِّدِينَ عَنْ لِبَاسِ أهْلِ الدُّنْيا، وَجَعَلَهُ حَرَمًا آمِنًا لَا يُسْفَكُ فِيهِ دَمٌ، وَلَا تُعْضَدُ بِهِ شَجَرَةٌ،وَلَا يُنَفَّرُ لَهُ صَيْدٌ، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ، وَلَا تُلْتَقَطُ لُقَطَتُهُ لِلتَّمْلِيكِ بَلْ لِلتَّعْرِيفِ لَيْسَ إلَّا، وَجَعَلَ قَصْدَهُ مُكَفِّرًا لِمَا سَلَفَ مِنَ الذُّنُوبِ، مَاحِيًا لِلْأوْزَارِ، حَاطًّا لِلْخَطَايا، كَمَا فِي (الصَّحِيحَيْنِ) عَنْ أبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (مَنْ أتَى هَذَا البَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ)، وَلَمْ يَرْضَ لِقَاصِدِهِ مِنَ الثَّوَابِ دُونَ الْجَنَّةِ، فَفِي (السُّنَنِ) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ–رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

–قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–:(تابِعُوا بَيْنَ الحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ الْمَبْرُورَةِ ثَوَابٌ دُونَ الْجَنَّةِ). وَفِي (الصَّحِيحَيْنِ) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ:(الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةَ)، فَلَوْ لَمْ يَكُنِ الْبَلَدُ الْأَمِينُ خَيْرَ بِلَادِهِ، وَأَحَبَّهَا إِلَيْهِ، وَمُخْتَارَهُ مِنَ الْبِلَادِ؛ لَمَا جَعَلَ عَرَصَاتِهَا مَنَاسِكَ لِعِبَادِهِ فَرَضَ عَلَيْهِمْ قَصْدَهَا، وَجَعَلَ ذَلِكَ مِنْ آكَدِ فُرُوضِ الْإِسْلَامِ، وَأَقْسَمَ بِهِ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ فِي مَوْضِعَيْنِ مِنْهُ فَقَالَ تَعَالَى:{وَهَذا البَلَدِ الأَمِينِ}. (التِّين: ٣)، وَقَالَ تَعَالَى:(لا أُقْسِمُ بِهَذَا البَلَدِ}.(البلد:١) وَلَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ بُقْعَةٌ يَجِبُ عَلَى كُلِّ قَادِرٍ السَّعْيُ إِلَيْهَا وَالطَّوَافُ بِالبَيْتِ الَّذِي فِيهَا غَيْرَهَا، وَلَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مَوْضِعٌ يُشْرَعُ تَقْبِيلُهُ وَاسْتِلَامُهُ، وَتُحَطُّ الخَطَايَا وَالْأَوْزَارُ فِيهِ غَيْرَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ، وَالرُّكْنِ اليَمَانِيِّ.



وَثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–أَنَّ الصَّلَاةَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بِمِائَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ، فَفِي (سُنَنِ النَّسَائِيِّ) وَ(الْمُسْنَدِ) بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–أَنَّهُ قَالَ:(صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَصَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةٍ فِي مَسْجِدِي هَذَا بِمِائَةِ صَلَاةٍ)

وَرَوَاهُ ابْنُ حِبّانَ فِي " صَحِيحِهِ "وَهَذا صَرِيحٌ فِي أَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ أَفْضَلُ بِقَاعِ الْأَرْضِ عَلَى الْإِطْلَاقِ،وَلِذَلِكَ كَانَ شَدُّ الرِّحَالِ إِلَيْهِ فَرْضًا، وَلِغَيْرِهِ مِمَّا يُسْتَحَبُّ وَلَا يَجِبُ، وَفِي (الْمُسْنَدِ) وَالتِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ الْحَمْرَاءِ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِالْحَزْوَرَةِ مِنْ مَكَّةَ يَقُولُ:(وَاللَّهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ

أَرْضِ اللَّهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ).قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

بَلْ وَمِنْ خَصَائِصِهَا كَوْنُهَا قِبْلَةً لِأَهْلِ الْأَرْضِ كُلِّهِمْ، فَلَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ قِبْلَةٌ غَيْرُهَا.

وَمِنْ خَوَاصِّهَا أَيْضًا أَنَّهُ يَحْرُمُ اسْتِقْبَالُهَا وَاسْتِدْبَارُهَا عِنْدَ قَضَاءِ الْحَاجَةِ دُونَ سَائِرِ بِقَاعِ الْأَرْضِ.

وَأَصَحُّ الْمَذَاهِبِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ: أَنَّهُ لَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الْفَضَاءِ وَالْبُنْيَانِ لِبِضْعَةَ عَشَرَ دَلِيلًا قَدْ ذُكِرَتْ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَلَيْسَ مَعَ الْمُفَرِّقِ مَا يُقَاوِمُهَا أَلْبَتَّةَ مَعَ تَنَاقُضِهِمْ فِي مِقْدَارِ الْفَضَاءِ وَالْبُنْيَانِ، وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ اسْتِيفَاءِ الْحِجَاجِ مِنَ الطَّرَفَيْنِ.

وَمِنْ خَوَاصِّهَا أَيْضًا أَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ أَوَّلُ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ، كَمَا فِي (الصَّحِيحَيْنِ (عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ:(سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–عَنْ أَوَّلِ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ؟ فَقَالَ: الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى، قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ أَرْبَعُونَ عَامًا).



وَقَدْ أَشْكَلَ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْمُرَادَ بِهِ فَقَالَ: مَعْلُومٌ أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ هُوَ الَّذِي بَنَى الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ إِبْرَاهِيمَ أَكْثَرُ مِنْ أَلْفِ عَامٍ، وَهَذَا مِنْ جَهْلِ هَذَا الْقَائِلِ، فَإِنَّ سُلَيْمَانَ إِنَّمَا كَانَ لَهُ مِنَ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى تَجْدِيدُهُ لَا تَأْسِيسُهُ، وَالَّذِي أَسَّسَهُ هُوَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ– صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَآلِهِمَا وَسَلَّمَ–بَعْدَ بِنَاءِ إِبْرَاهِيمَ الْكَعْبَةَ بِهَذَا الْمِقْدَارِ.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى تَفْضِيلِهَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّهَا أُمُّ الْقُرَى، فَالْقُرَى كُلُّهَا تَبَعٌ لَهَا وَفَرْعٌ عَلَيْهَا، وَهِيَ أَصْلُ الْقُرَى، فَيَجِبُ أَلَّا يَكُونَ لَهَا فِي الْقُرَى عَدِيلٌ، فَهِيَ كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ–

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–عَنِ (الْفَاتِحَةِ) أَنَّهَا أُمُّ الْقُرْآنِ، وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا فِي الْكُتُبِ الإلَهِيَّةِ عَدِيلٌ.

وَمِنْ خَصَائِصِهَا أَنَّهَا لَا يَجُوزُ دُخُولُهَا لِغَيْرِ أَصْحَابِ الْحَوَائِجِ الْمُتَكَرِّرَةِ إِلَّا بِإِحْرَامٍ، وَهَذِهِ خَاصِّيَّةٌ لَا يُشَارِكُهَا فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْبِلَادِ، وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ تَلَقَّاهَا النَّاسُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ–رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–،وَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ بِإِسْنَادٍ لَا يُحْتَجُّ بِهِ مَرْفُوعًا(لا يَدْخُلُ أَحَدٌ مَكَّةَ إِلَّا بِإِحْرَامٍ، مِنْ أَهْلِهَا وَمِنْ غَيْرِ أَهْلِهَا) ذَكَرَهُ أَبُو أَحْمَدَ بْنُ عَدِيٍّ، وَلَكِنَّ الْحَجَّاجَ بْنَ أَرْطَاةَ فِي الطَّرِيقِ، وَآخَرَ قَبْلَهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ.



وَلِلْفُقَهَاءِ فِي الْمَسْأَلَةِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: النَّفْيُ، وَالْإِثْبَاتُ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ مَنْ هُوَ دَاخِلُ الْمَوَاقِيتِ وَمَنْ هُوَ قَبْلَهَا، فَمَنْ قَبْلَهَا لَا يُجَاوِزُهَا إِلَّا بِإِحْرَامٍ، وَمَنْ هُوَ دَاخِلُهَا فَحُكْمُهُ حُكْمُ أَهْلِ مَكَّةَ، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ ، وَالْقَوْلَانِ الأَوَّلَانِ لِلشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ.

وَمِنْ خَوَاصِّهِ أَنَّهُ يُعَاقَبُ فِيهِ عَلَى الْهَمِّ بِالسَّيِّئَاتِ وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْهَا، قَالَ تَعَالَى:{وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}

.(الحجّ: ٢٥) فَتَأَمَّلْ كَيْفَ عَدَّى فِعْلَ الْإِرَادَةِ هَاهُنَا بِالْبَاءِ، وَلَا يُقَالُ: أَرَدْتُ بِكَذَا إِلَّا لِمَا ضُمِّنَ مَعْنَى فِعْلِ (هَمَّ) فَإِنَّهُ يُقَالُ: هَمَمْتُ بِكَذَا، فَتَوَعَّدَ مَنْ هَمَّ بِأَنْ يَظْلِمَ فِيهِ بِأَنْ يُذِيقَهُ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ.

وَمِنْ هَذَا تَضَاعُفُ مَقَادِيرِ السَّيِّئَاتِ فِيهِ لَا كَمِّيَّاتِهَا، فَإِنَّ السَّيِّئَةَ جَزَاؤُهَا سَيِّئَةٌ، لَكِنْ سَيِّئَةٌ كَبِيرَةٌ جَزَاؤُهَا مِثْلُهَا، وَصَغِيرَةٌ جَزَاؤُهَا مِثْلُهَا، فَالسَّيِّئَةُ فِي حَرَمِ اللَّهِ وَبَلَدِهِ وَعَلَى بِسَاطِهِ آكَدُ وَأَعْظَمُ مِنْهَا فِي طَرَفٍ مِنْ أَطْرَافِ الْأَرْضِ،وَلِهَذَا لَيْسَ مَنْ عَصَى الْمَلِكَ عَلَى بِسَاطِ مُلْكِهِ

كَمَنْ عَصَاهُ فِي الْمَوْضِعِ الْبَعِيدِ مِنْ دَارِهِ وَبِسَاطِهِ، فَهَذَا فَصْلُ النِّزَاعِ فِي تَضْعِيفِ السَّيِّئَاتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ ظَهَرَ سِرُّ هَذَا التَّفْضِيلِ وَالِاخْتِصَاصِ فِي انْجِذَابِ الْأَفْئِدَةِ وَهَوَى الْقُلُوبِ وَانْعِطَافِهَا وَمَحَبَّتِهَا لِهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ، فَجَذْبُهُ لِلْقُلُوبِ أَعْظَمُ مِنْ جَذْبِ المِغْنَاطِيسِ لِلْحَدِيدِ، فَهُوَ الْأَوْلَى بِقَوْلِ الْقَائِلِ:

-مَحَاسِنُهُ هَيُولَى كُلِّ حُسْنٍ

وَمِغْنَاطِيسُ أَفْئِدَةِ الرِّجَالِ.

وَلِهَذَا أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ مَثَابَةٌ لِلنّاسِ، أيْ: يَثُوبُونَ إِلَيْهِ عَلَى تَعَاقُبِ الْأَعْوَامِ مِنْ جَمِيعِ الأَقْطَارِ، وَلَا يَقْضُونَ مِنْهُ وَطَرًا، بَلْ كُلَّمَا ازْدَادُوا لَهُ زِيَارَةً ازْدَادُوا لَهُ اشْتِيَاقًا.

-لا يَرْجِعُ الطَّرْفُ عَنْهَا حِينَ يَنْظُرُهَا

حَتَّى يَعُودَ إلَيْها الطَّرْفُ مُشْتاقًا.



فَلَلَّهِ كَمْ لَهَا مِنْ قَتِيلٍ وَسَلِيبٍ وَجَرِيحٍ، وَكَمْ أُنْفِقَ فِي حُبِّهَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَرْوَاحِ، وَرَضِيَ الْمُحِبُّ بِمُفَارَقَةِ فِلَذِ الْأَكْبَادِ، وَالْأَهْلِ وَالْأَحْبَابِ وَالْأَوْطَانِ، مُقَدِّمًا بَيْنَ يَدَيْهِ أَنْوَاعَ الْمَخَاوِفِ وَالْمَتَالِفِ وَالْمَعَاطِفِ وَالْمَشَاقِّ، وَهُوَ يَسْتَلِذُّ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيَسْتَطِيبُهُ وَيَرَاهُ – لَوْ ظَهَرَ سُلْطَانُ الْمَحَبَّةِ فِي قَلْبِهِ– أَطْيَبَ مِنْ نِعَمِ الْمُتَحَلِّيَةِ وَتَرَفِهِمْ وَلَذَّاتِهِمْ.

-وَلَيْسَ مُحِبًّا مَنْ يَعُدُّ شَقَاءَهُ

عَذَابًا إِذَا مَا كَانَ يَرْضَى حَبِيبُهُ.

وَهَذَا كُلُّهُ سِرُّ إِضَافَتِهِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِقَوْلِهِ: {وَطَهِّرْ بَيْتِيَ}. (الحجّ:٢٦).

فَاقْتَضَتْ هَذِهِ الْإِضَافَةُ الْخَاصَّةُ مِنْ هَذَا الْإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ وَالْمَحَبَّةِ مَا اقْتَضَتْهُ، كَمَا اقْتَضَتْ إِضَافَتُهُ لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ إِلَى نَفْسِهِ مَا اقْتَضَتْهُ مِنْ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ إِضَافَتُهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ كَسَتْهُمْ مِنَ الْجَلَالِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْوَقَارِ مَا كَسَتْهُمْ، فَكُلُّ مَا أَضَافَهُ الرَّبُّ تَعَالَى إِلَى نَفْسِهِ فَلَهُ مِنَ الْمَزِيَّةِ وَالِاخْتِصَاصِ عَلَى غَيْرِهِ مَا أَوْجَبَ لَهُ الِاصْطِفَاءَ وَالِاجْتِبَاءَ، ثُمَّ يَكْسُوهُ بِهَذِهِ الْإِضَافَةِ تَفْضِيلًا آخَرَ، وَتَخْصِيصًا وَجَلَالَةً زَائِدًا عَلَى مَا كَانَ لَهُ قَبْلَ الْإِضَافَةِ، وَلَمْ يُوَفَّقْ لِفَهْمِ هَذَا الْمَعْنَى مَنْ سَوَّى بَيْنَ الْأَعْيَانِ وَالْأَفْعَالِ وَالْأَزْمَانِ وَالْأَمَاكِنِ، وَزَعَمَ أَنَّهُ لَا مَزِيَّةَ لِشَيْءٍ مِنْهَا عَلَى شَيْءٍ، وَإِنَّمَا هُوَ مُجَرَّدُ التَّرْجِيحِ بِلَا مُرَجِّحٍ، وَهَذَا الْقَوْلُ بَاطِلٌ بِأَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِينَ وَجْهًا قَدْ ذُكِرَتْ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَيَكْفِي تَصَوُّرُ هَذَا الْمَذْهَبِ الْبَاطِلِ فِي فَسَادِهِ، فَإِنَّ مَذْهَبَنَا يَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ ذَوَاتُ الرُّسُلِ كَذَوَاتِ أَعْدَائِهِمْ فِي الْحَقِيقَةِ، وَإِنَّمَا التَّفْضِيلُ بِأَمْرٍ لَا يَرْجِعُ إِلَى اخْتِصَاصِ الذَّوَاتِ بِصِفَاتٍ وَمَزَايَا لَا تَكُونُ لِغَيْرِهَا، وَكَذَلِكَ نَفْسُ الْبِقَاعِ وَاحِدَةٌ بِالذَّاتِ لَيْسَ لِبُقْعَةٍ عَلَى بُقْعَةٍ مَزِيَّةٌ أَلْبَتَّةَ، وَإِنَّمَا هُوَ لِمَا يَقَعُ فِيهَا مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَلَا مَزِيَّةَ لِبُقْعَةِ الْبَيْتِ، وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمِنًى، وَعَرَفَةَ، وَالْمَشَاعِرِ عَلَى أَيِّ بُقْعَةٍ سَمَّيْتُهَا مِنَ الْأَرْضِ، وَإِنَّمَا التَّفْضِيلُ بِاعْتِبَارِ أَمْرٍ خَارِجٍ عَنِ الْبُقْعَةِ لَا يَعُودُ إِلَيْهَا وَلَا إِلَى وَصْفٍ قَائِمٍ بِهَا، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ رَدَّ هَذَا الْقَوْلَ الْبَاطِلَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ}.(الأنعام:١٢٤) قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}.



أَيْ: لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ أَهْلًا وَلَا صَالِحًا لِتَحَمُّلِ رِسَالَتِهِ، بَلْ لَهَا مَحَالٌّ مَخْصُوصَةٌ لَا تَلِيقُ إِلَّا بِهَا، وَلَا تَصْلُحُ إِلَّا لَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِهَذِهِ الْمَحَالِّ مِنْكُمْ. وَلَوْ كَانَتِ الذَّوَاتُ مُتَسَاوِيَةً كَمَا قَالَ هَؤُلَاءِ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ رَدٌّ عَلَيْهِمْ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ}. (الأنعام:٥٣).

أيْ: هُوَ سُبْحَانَهُ أعْلَمُ بِمَنْ يَشْكُرُهُ عَلَى نِعْمَتِهِ، فَيَخْتَصُّهُ بِفَضْلِهِ وَيَمُنُّ عَلَيْهِ مِمَّنْ لَا يَشْكُرُهُ، فَلَيْسَ كُلُّ محَلٍّ يَصْلُحُ لِشُكْرِهِ، وَاحْتِمَالِ مِنَّتِهِ، وَالتَّخْصِيصِ بِكَرَامَتِهِ.

فَذَوَاتُ مَا اخْتارَهُ وَاصْطَفَاهُ مِنَ الْأعْيَانِ وَالْأمَاكِنِ وَالْأشْخَاصِ وَغَيْرِهَا مُشْتَمِلَةٌ عَلَى صِفَاتٍ وَأُمُورٍ قَائِمَةٍ بِهَا لَيْسَتْ لِغَيْرِهَا، وَلِأجْلِهَا اصْطَفَاهَا اللَّهُ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ الَّذِي فَضَّلَهَا بِتِلْكَ الصِّفَاتِ، وَخَصَّهَا بِالِاخْتِيَارِ، فَهَذَا خَلْقُهُ، وَهَذَا اخْتِيَارُهُ {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ}

وَمَا أبْيَنَ بُطْلَانِ رَأْيٍ يَقْضِي بِأنَّ مَكَانَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ مُسَاوٍ لِسَائِرِ الْأمْكِنَةِ، وَذَاتَ الْحَجَرِ الْأسْوَدِ مُسَاوِيَةٌ لِسَائِرِ حِجَارَةِ الْأرْضِ، وَذَاتَ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–مُسَاوِيَةٌ لِذَاتِ غَيْرِهِ، وَإِنَّمَا التَّفْضِيلُ فِي ذَلِكَ بِأُمُورٍ خَارِجَةٍ عَنِ الذّاتِ وَالصِّفَاتِ الْقَائِمَةِ بِهَا، وَهَذِهِ الْأقَاوِيلُ وَأمْثَالُهَا مِنَ الْجِنَايَاتِ الَّتِي جَنَاهَا الْمُتَكَلِّمُونَ عَلَى الشَّرِيعَةِ وَنَسَبُوهَا إِلَيْهَا وَهِيَ بَرِيئَةٌ مِنْهَا، وَلَيْسَ مَعَهُمْ أكْثَرُ مِنَ اشْتِرَاكِ الذَّوَاتِ فِي أمْرٍ عَامٍّ، وَذَلِكَ لَا يُوجِبُ تَسَاوِيهَا فِي الْحَقِيقَةِ؛ لِأنَّ الْمُخْتَلِفَاتِ قَدْ تَشْتَرِكُ فِي أمْرٍ عَامٍّ مَعَ اخْتِلَافِهَا فِي صِفَاتِهَا النَّفْسِيَّةِ، وَمَا سَوَّى اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ ذَاتِ الْمِسْكِ وَذَاتِ الْبَوْلِ أبَدًا، وَلَا بَيْنَ ذَاتِ الْمَاءِ وَذَاتِ النّارِ أبَدًا، وَالتَّفَاوُتُ الْبَيِّنُ بَيْنَ الْأمْكِنَةِ الشَّرِيفَةِ وَأضْدَادِهَا وَالذَّوَاتِ الْفَاضِلَةِ وَأضْدَادِهَا أعْظَمُ مِنْ هَذَا التَّفَاوُتِ بِكَثِيرٍ، فَبَيْنَ ذَاتِ مُوسَى– عَلَيْهِ السَّلَامُ– وَذَاتِ فِرْعَوْنَ مِنَ التَّفَاوُتِ أعْظَمُ مِمَّا بَيْنَ الْمِسْكِ وَالرَّجِيعِ، وَكَذَلِكَ التَّفَاوُتُ بَيْنَ نَفْسِ الْكَعْبَةِ وَبَيْنَ بَيْتِ السُّلْطَانِ أعْظَمُ مِنْ هَذَا التَّفَاوُتِ أيْضًا بِكَثِيرٍ، فَكَيْفَ تُجْعَلُ الْبُقْعَتَانِ سَوَاءً فِي الْحَقِيقَةِ وَالتَّفْضِيلُ بِاعْتِبَارِ مَا يَقَعُ هُنَاكَ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالْأذْكَارِ وَالدَّعَوَاتِ؟!.



وَلَمْ نَقْصِدِ اسْتِيفَاءَ الرَّدِّ عَلَى هَذَا الْمَذْهَبِ الْمَرْدُودِ الْمَرْذُولِ، وَإِنَّمَا قَصَدْنَا تَصْوِيرَهُ، وَإِلَى اللَّبِيبِ الْعَادِلِ الْعَاقِلِ التَّحَاكُمُ وَلَا يَعْبَأُ اللَّهُ وَعِبَادُهُ بِغَيْرِهِ شَيْئًا، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يُخَصِّصُ

شَيْئًا، وَلَا يُفَضِّلُهُ وَيُرَجِّحُهُ إِلَّا لِمَعْنًى يَقْتَضِي تَخْصِيصَهُ وَتَفْضِيلَهُ، نَعَمْ هُوَ مُعْطِي ذَلِكَ الْمُرَجِّحِ وَوَاهِبُهُ، فَهُوَ الَّذِي خَلَقَهُ، ثُمَّ اخْتَارَهُ بَعْدَ خَلْقِهِ، {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ}.

-وَالْمَقْصُودُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اخْتَارَ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ مِنْ أَجْنَاسِ الْمَخْلُوقَاتِ أَطْيَبَهُ، وَاخْتَصَّهُ لِنَفْسِهِ وَارْتَضَاهُ دُونَ غَيْرِهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى طَيِّبٌ لَا يُحِبُّ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَلَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ وَالْكَلَامِ وَالصَّدَقَةِ إِلَّا الطَّيِّبَ، فَالطَّيِّبُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ هُوَ مُخْتَارُهُ تَعَالَى.

وَأَمَّا خَلْقُهُ تَعَالَى فَعَامٌّ لِلنَّوْعَيْنِ، وَبِهَذَا يُعْلَمُ عُنْوانُ سَعَادَةِ الْعَبْدِ وَشَقَاوَتِهِ، فَإِنَّ الطَّيِّبَ لَا يُنَاسِبُهُ إِلَّا الطَّيِّبُ وَلَا يَرْضَى إِلَّا بِهِ، وَلَا يَسْكُنُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا يَطْمَئِنُّ قَلْبُهُ إِلَّا بِهِ، فَلَهُ مِنَ الْكَلَامِ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ الَّذِي لَا يَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا هُوَ، وَهُوَ أَشَدُّ شَيْءٍ نُفْرَةً عَنِ الْفُحْشِ فِي الْمَقَالِ، وَالتَّفَحُّشِ فِي اللِّسَانِ وَالْبَذَاءِ وَالْكَذِبِ وَالْغِيبَةِ وَالنَّمِيمَةِ وَالْبُهْتِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَكُلِّ كَلَامٍ خَبِيثٍ.



وَكَذَلِكَ لَا يَأْلَفُ مِنَ الْأَعْمَالِ إِلَّا أَطْيَبَهَا، وَهِيَ الْأَعْمَالُ الَّتِي اجْتَمَعَتْ عَلَى حُسْنِهَا الْفِطَرُ السَّلِيمَةُ مَعَ الشَّرَائِعِ النَّبَوِيَّةِ، وَزَكَّتْهَا الْعُقُولُ الصَّحِيحَةُ، فَاتَّفَقَ عَلَى حُسْنِهَا الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ وَالْفِطْرَةُ، مِثْلَ أَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَيُؤْثِرَ مَرْضَاتَهُ عَلَى هَوَاهُ، وَيَتَحَبَّبَ إِلَيْهِ جَهْدَهُ وَطَاقَتَهُ، وَيُحْسِنَ إِلَى خَلْقِهِ مَا اسْتَطَاعَ، فَيَفْعَلَ بِهِمْ مَا يُحِبُّ أَنْ يَفْعَلُوا بِهِ، وَيُعَامِلُوهُ بِهِ، وَيَدَعَهُمْ مِمَّا يُحِبُّ أَنْ يَدَعُوهُ مِنْهُ، وَيَنْصَحَهُمْ بِمَا يَنْصَحُ بِهِ نَفْسَهُ، وَيَحْكُمَ لَهُمْ بِمَا يُحِبُّ أَنْ يُحْكَمَ لَهُ بِهِ، وَيَحْمِلَ أَذَاهُمْ وَلَا يُحَمِّلَهُمْ أَذَاهُ، وَيَكُفَّ عَنْ أَعْرَاضِهِمْ وَلَا يُقَابِلَهُمْ بِمَا نَالُوا مِنْ عِرْضِهِ، وَإِذَا رَأَى لَهُمْ حَسَنًا أَذَاعَهُ، وَإِذَا رَأَى لَهُمْ سَيِّئًا كَتَمَهُ، وَيُقِيمَ أَعْذَارَهُمْ مَا اسْتَطَاعَ فِيمَا لَا يُبْطِلُ شَرِيعَةً، وَلَا يُنَاقِضُ لِلَّهِ أَمْرًا وَلَا نَهْيًا.

وَلَهُ أَيْضًا مِنَ الْأَخْلَاقِ أَطْيَبُهَا وَأَزْكَاهَا، كَالْحِلْمِ وَالْوَقَارِ وَالسَّكِينَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالصَّبْرِ وَالْوَفَاءِ، وَسُهُولَةِ الْجَانِبِ وَلِينِ الْعَرِيكَةِ وَالصِّدْقِ، وَسَلَامَةِ الصَّدْرِ مِنَ الْغِلِّ وَالْغِشِّ وَالْحِقْدِ وَالْحَسَدِ،

وَالتَّوَاضُعِ وَخَفْضِ الجْنَاحِ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ، وَالْعِزَّةِ وَالْغِلْظَةِ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ، وَصِيَانَةِ الْوَجْهِ عَنْ بَذْلِهِ وَتَذَلُّلِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَالْعِفَّةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالسَّخَاءِ وَالْمُرُوءَةِ، وَكُلِّ خُلُقٍ اتَّفَقَتْ عَلَى حُسْنِهِ الشَّرَائِعُ وَالفِطَرُ وَالْعُقُولُ.

وَكَذَلِكَ لَا يَخْتَارُ مِنَ الْمَطَاعِمِ إِلَّا أَطْيَبَهَا، وَهُوَ الْحَلَالُ الْهَنِيءُ الْمَرِيءُ الَّذِي يُغَذِّي الْبَدَنَ وَالرُّوحَ أَحْسَنَ تَغْذِيَةٍ، مَعَ سَلَامَةِ الْعَبْدِ مِنْ تَبِعَتِهِ.

وَكَذَلِكَ لَا يَخْتَارُ مِنَ الْمَنَاكِحِ إِلَّا أَطْيَبَهَا وَأَزْكَاهَا، وَمِنَ الرَّائِحَةِ إِلَّا أَطْيَبَهَا وَأَزْكَاهَا، وَمِنَ الْأَصْحَابِ وَالعُشَرَاءِ إِلَّا الطَّيِّبِينَ مِنهُمْ، فَرُوحُهُ طَيِّبٌ، وَبَدَنُهُ طَيِّبٌ، وَخُلُقُهُ طَيِّبٌ وَعَمَلُهُ طَيِّبٌ، وَكَلامُهُ طَيِّبٌ، وَمَطْعَمُهُ طَيِّبٌ، وَمَشْرَبُهُ طَيِّبٌ، وَمَلْبَسُهُ طَيِّبٌ، وَمَنكَحُهُ طَيِّبٌ، وَمَدْخَلُهُ طَيِّبٌ، وَمَخْرَجُهُ طَيِّبٌ، وَمُنْقَلَبُهُ طَيِّبٌ، وَمَثْواهُ كُلُّهُ طَيِّبٌ. فَهَذَا مِمَّنْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ:{الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}. (النَّحل:٣٢).



وَمِنَ الَّذِينَ يَقُولُ لَهُمْ خَزَنَةُ الجَنَّةِ:{سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ}.(الزُّمر:٧٢).

وَهَذِهِ الْفَاءُ تَقْتَضِي السَّبَبِيَّةَ، أيْ: بِسَبَبِ طِيبِكُمُ ادْخُلُوهَا. وَقَالَ تَعَالَى:{الخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ}.(النُّور:٢٦).

وَقَدْ فُسِّرَتِ الْآيَةُ بِأَنَّ الْكَلِمَاتِ الْخَبِيثَاتِ لِلْخَبِيثِينَ وَالْكَلِمَاتِ الطَّيِّبَاتِ لَلطَّيِّبِينَ، وَفُسِّرَتْ بِأَنَّ النِّسَاءَ الطَّيِّبَاتِ لِلرِّجَالِ الطَّيِّبِينَ، وَالنِّسَاءَ الخَبِيثَاتِ لِلرِّجَالِ الخَبِيثِينَ، وَهِيَ تَعُمُّ ذَلِكَ وَغَيْرَهُ، فَالْكَلِمَاتُ وَالْأَعْمَالُ وَالنِّسَاءُ الطَّيِّبَاتُ لِمُنَاسِبِهَا مِنَ الطَّيِّبِينَ، وَالْكَلِمَاتُ وَالْأَعْمَالُ وَالنِّسَاءُ الْخَبِيثَةُ لِمُنَاسِبِهَا مِنَ الْخَبِيثِينَ، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ الطَّيِّبَ بِحَذَافِيرِهِ فِي الْجَنَّةِ،

وَجَعَلَ الْخَبِيثَ بِحَذَافِيرِهِ فِي النّارِ، فَجَعَلَ الدُّورَ ثَلاثَةً: دَارًا أُخْلِصَتْ لَلطَّيِّبِينَ، وَهِيَ حَرَامٌ عَلَى غَيْرِ الطَّيِّبِينَ، وَقَدْ جَمَعَتْ كُلَّ طَيِّبٍ وَهِيَ الْجَنَّةُ.



وَدَارًا أُخْلِصَتْ لِلْخَبِيثِ وَالْخَبَائِثِ وَلَا يَدْخُلُهَا إِلَّا الْخَبِيثُونَ وَهِيَ النّارُ.

وَدَارًا امْتَزَجَ فِيهَا الطَّيِّبُ وَالْخَبِيثُ وَخُلِطَ بَيْنَهُمَا وَهِيَ هَذِهِ الدّارُ؛ وَلِهَذا وَقَعَ الِابْتِلَاءُ وَالْمِحْنَةُ بِسَبَبِ هَذَا الِامْتِزَاجِ وَالِاخْتِلَاطِ، وَذَلِكَ بِمُوجَبِ الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ مَعَادِ الْخَلِيقَةِ مَيَّزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، فَجَعَلَ الطَّيِّبَ وَأَهْلَهُ فِي دَارٍ عَلَى حِدَةٍ لَا يُخَالِطُهُمْ غَيْرُهُمْ، وَجَعَلَ الْخَبِيثَ وَأَهْلَهُ فِي دَارٍ عَلَى حِدَةٍ لَا يُخَالِطُهُمْ غَيْرُهُمْ، فَعَادَ الْأَمْرُ إِلَى دَارَيْنِ فَقَطْ: الْجَنَّةِ وَهِيَ دَارُ الطَّيِّبِينَ، وَالنّارِ وَهِيَ دَارُ الْخَبِيثِينَ، وَأَنْشَأَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَعْمَالِ الْفَرِيقَيْنِ ثَوَابَهُمْ وَعِقَابَهُمْ، فَجَعَلَ طَيّباتِ أَقْوَالِ هَؤُلَاءِ وَأَعْمَالِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ هِيَ عَيْنَ نَعِيمِهِمْ وَلَذّاتِهِمْ، أَنْشَأَ لَهُمْ مِنْهَا أَكْمَلَ أَسْبَابِ النَّعِيمِ وَالسُّرُورِ، وَجَعَلَ خَبِيثَاتِ أَقْوَالِ الْآخَرِينَ وَأَعْمَالِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ هِيَ عَيْنَ عَذَابِهِمْ وَآلَامِهِمْ، فَأَنْشَأَ لَهُمْ مِنْهَا أَعْظَمَ أَسْبَابِ الْعِقَابِ وَالْآلَامِ حِكْمَةً بَالِغَةً وَعِزَّةً بَاهِرَةً قاهِرَةً لِيُرِيَ عِبَادَهُ كَمَالَ رُبُوبِيَّتِهِ وَكَمَالَ حِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ وَعَدْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَلِيَعْلَمَ أَعْدَاؤُهُ أَنَّهُمْ كَانُوا هُمُ الْمُفْتَرِينَ الْكَذّابِينَ لَا رُسُلُهُ الْبَرَرَةُ الصّادِقُونَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَعْلَمُونَ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ}.(النَّحل:٣٨–٣٩).

–وَالْمَقْصُودُ أَنَّ اللَّهَ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – جَعَلَ لِلسَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ عُنْوَانًا يُعْرَفَانِ بِهِ، فَالسَّعِيدُ الطَّيِّبُ لَا يَلِيقُ بِهِ إِلَّا طَيّبٌ، وَلَا يَأْتِي إِلَّا طَيّبًا، وَلَا يَصْدُرُ مِنْهُ إِلَّا طَيّبٌ، وَلَا يُلَابِسُ إِلَّا طَيِّبًا، وَالشَّقِيُّ الْخَبِيثُ لَا يَلِيقُ بِهِ إِلَّا الْخَبِيثُ، وَلَا يَأْتِي إِلَّا خَبِيثًا، وَلَا يَصْدُرُ مِنْهُ إِلَّا الْخَبِيثُ، فَالخَبِيثُ يَتَفَجَّرُ مِنْ قَلْبِهِ الْخُبْثُ عَلَى لِسَانِهِ وَجَوَارِحِهِ، وَالطَّيِّبُ يَتَفَجَّرُ مِنْ

قَلْبِهِ الطِّيبُ عَلَى لِسَانِهِ وَجَوَارِحِهِ. وَقَدْ يَكُونُ فِي الشَّخْصِ مَادَّتَانِ فَأَيُّهُمَا غَلَبَ عَلَيْهِ كَانَ مِنْ أَهْلِهَا، فَإِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا طَهَّرَهُ مِنَ الْمَادَّةِ الْخَبِيثَةِ قَبْلَ الْمُوَافَاةِ، فَيُوَافِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُطَهَّرًا فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى تَطْهِيرِهِ بِالنّارِ فَيُطَهِّرُهُ مِنْهَا بِمَا يُوَفِّقُهُ لَهُ مِنَ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ، وَالْحَسَنَاتِ الْمَاحِيَةِ، وَالْمَصَائِبِ الْمُكَفِّرَةِ، حَتّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ، وَيُمْسِكُ عَنِ الْآخَرِ مَوَادَّ التَّطْهِيرِ، فَيَلْقَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَادَّةٍ خَبِيثَةٍ وَمَادَّةٍ طَيِّبَةٍ، وَحِكْمَتُهُ تَعَالَى تَأْبَى أَنْ يُجَاوِرَهُ أَحَدٌ فِي دَارِهِ بِخَبَائِثِهِ فَيُدْخِلَهُ النّارَ طُهْرَةً لَهُ وَتَصْفِيَةً وَسَبْكًا، فَإِذَا خَلُصَتْ سَبِيكَةُ إِيمَانِهِ مِنَ الْخَبَثِ صَلُحَ حِينَئِذٍ لِجِوَارِهِ وَمُسَاكَنَةِ الطَّيِّبِينَ مِنْ عِبَادِهِ. وَإِقَامَةُ هَذَا النَّوْعِ مِنَ النّاسِ فِي النّارِ عَلَى حَسَبِ سُرْعَةِ زَوَالِ تِلْكَ الْخَبَائِثِ مِنْهُمْ وَبُطْئِهَا، فَأَسْرَعُهُمْ زَوَالًا وَتَطْهِيرًا أَسْرَعُهُمْ خُرُوجًا، وَأَبْطَؤُهُمْ أَبْطَؤُهُمْ خُرُوجًا، {جَزَاءً وِفَاقًا}.(النَّبأ:٢٦) {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}.(فصّلت:٤٦).

وَلَمَّا كَانَ الْمُشْرِكُ خَبِيثَ الْعُنْصُرِ خَبِيثَ الذّاتِ لَمْ تُطَهِّرِ النّارُ خُبْثَهُ، بَلْ لَوْ خَرَجَ مِنْهَا لَعَادَ خَبِيثًا كَمَا كَانَ، كَالْكَلْبِ إِذَا دَخَلَ الْبَحْرَ ثُمَّ خَرَجَ مِنْهُ، فَلِذَلِكَ حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْمُشْرِكِ الْجَنَّةَ.

وَلَمَّا كَانَ الْمُؤْمِنُ الطَّيِّبُ الْمُطَيِّبُ مُبَرَّءًا مِنَ الْخَبَائِثِ كَانَتِ النّارُ حَرَامًا عَلَيْهِ، إِذْ لَيْسَ فِيهِ مَا يَقْتَضِي تَطْهِيرَهُ بِهَا، فَسُبْحَانَ مَنْ بَهَرَتْ حِكْمَتُهُ الْعُقُولَ وَالْأَلْبَابَ، وَشَهِدَتْ فِطَرُ عِبَادِهِ وَعُقُولُهُمْ بِأَنَّهُ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ وَرَبُّ الْعَالَمِينَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}.

•وَبَعْدَ هَذَا التَّمْهِيدِ الْمُهِمّ حَانَ أَوَانُ الشُّرُوعِ فِي الْمَقْصُودِ فَأَقُولُ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ:



•أَوَّلًا: {فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا}:

•لَقَدِ اخْتَصَّ اللَّهُ تَعَالَى شَهْرَ شَعْبَانَ بِعِدَّةِ خَصَائِص مِنْهَا:

-جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَى شَهْرَ خِتَامٍ لأَعْمَالِ السَّنَةِ:

-فَقَدْ أَخْرَجَ الْإِمَامُ النَّسَائيُّ-رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-فِي سُنَنِهِ بِرَقَمِ

(٢٣٥٦)مِنْ حَدِيثِ أسَامَة بْن زَيْدٍ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا- قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَمْ أَرَكَ تَصُومُ شَهْرًا مِنَ الشُّهُورِ مَا تَصُومُ مِنْ شَعْبَانَ، قَالَ:{ذَلِكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ، وَهُوَ شَهْرٌ تُرْفَعُ فِيهِ الأَعْمَالُ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ}.(وصحَّحه الألبانيُّ فِي صَحِيح النَّسَائيّ:٢٣٥٦).



-خَصَّهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِزِيَادَةِ صِيَامٍ:

-فَفِي حَدِيثِ أسَامَة -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ- الْمُتَقَدِّمِ قَالَ:{فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ}.

-وَمَا أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ-رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-فِي صَحِيحِهِ بِرَقَمِ

(١٩٦٩)مِنْ حَدِيثِ أمِّ الْمُؤمِنِينَ عَائِشَةَ-رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا-

،قَالَتْ:{كانَ رَسُولُ اللَّهِ- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-يَصُومُ حَتَّى نَقُولَ: لَا يُفْطِرُ، وَيُفْطِرُ حَتَّى نَقُولَ:لَا يَصُومُ،فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-اسْتَكْمَلَ صِيَامَ شَهْرٍ إِلَّا رَمَضَانَ، وَمَا رَأَيْتُهُ أَكْثَرَ صِيَامًا مِنْهُ فِي شَعْبَانَ}.

-خَصَّهُ اللهُ تَعَالَى بِحَادِثَةِ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ:

وَهِيَ حَادِثَةٌ تُعْلِنُ للعَالَمِ تَمَيُّزَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ غَيْرِهِمْ، وَبَرَاءَتَهُمْ مِنْ كُلِّ مِلَّةٍ مُخَالِفَةٍ.

•قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً

وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ}.(البقرة:١٤٢-١٤٤).



-الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيُّ:

-فِي هَذِهِ الْآيَاتِ بَيَانٌ لِشَرَفِ النَّبِيِّ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-وَشَرَفِ أُمَّتِهِ،وَفِيهَا بَيَانٌ لِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى أمَّةِ النَّبِيِّ الْخَاتَمِ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-حَيْثُ أرْسَلَ إِلَيْهِمْ أشْرَفَ رَسُولٍ،وَأنْزَلَ عَلَيْهِمْ أفْضَلَ كِتَابٍ،وَهَدَاهُمْ إلَى أحْسَنِ قِبْلَةٍ،وَجَعَلَهُمْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ،أيْ:عَلَى الْأُمَمِ كُلِّهَا،وَجَعَلَ الرَّسُولَ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-عَلَيْهِمْ شَهِيدًا.

-وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ بَيَانُ أنَّ الَّذِي يَعْتَرِضُ عَلَى أمْرِ اللَّهِ تَعَالَى سَفِيهٌ وَالسَّفِيهُ هُوَ ضَعِيفُ الْعَقْلِ.

-أيْ:سَيَقُولُ الْجُهَّالُ خِفَافُ الْعُقُولِ مِنَ الْيَهُودِ، وَمَنْ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ: مَا صَرَفَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ قِبْلَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ الَّتِي كَانَتْ قِبْلَتَهُمْ مِنْ قَبْل؟! قُلْ – أيُّهَا النَّبِيُّ – مُجِيبًا إيَّاهُمْ: للهِ وَحْدَهُ مُلْكُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْجِهَاتِ، يُوَجِّهُ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ إِلَى أيِّ جِهَةٍ شَاءَ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ لَا اعْوِجَاج فِيهِ وَلَا انْحِرَاف.

-وَكَمَا جَعَلْنَا لَكُمْ قِبْلَةً ارْتَضَيْنَاهَا لَكُمْ؛ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً خِيَارًا عُدُولًا، وَسَطًا بَيْنَ الْأُمَمِ كُلِّهَا، فِي الْعَقَائِدِ وَالْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ؛ لِتَكُونُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُهَدَاءَ لِرُسُلِ اللهِ أَنَّهُمْ بَلَّغُوا مَا أَمَرَهُمُ اللهُ بِتَبْلِيغِهِ لأُمَمِهِمْ، وَلِيَكُونَ الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-كَذَلِكَ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ أَنَّهُ بَلَّغَكُمْ مَا أُرْسِلَ بِهِ إِلَيْكُمْ.



-وَمَا جَعَلْنَا تَحْوِيلَ الْقِبْلَةِ الَّتِي كُنْتَ تَتَّجِهُ إِلَيْهَا؛ وَهِيَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ، إِلَّا لِنَعْلَمَ – عِلْمَ ظُهُورٍ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الْجَزَاءُ – مَنْ يَرْضَى بِمَا شَرَعَهُ اللهُ، وَيُذْعِنُ لَهُ، فَيَتَّبِع الرَّسُولَ، وَمَنْ يَرْتَدّ عَنْ دِينِهِ، وَيَتَّبِع هَوَاهُ، فَلَا يُذْعِن لِمَا شَرَعَهُ اللهُ.

-وَلَقَدْ كَانَ أَمْرُ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ الْأُولَى عَظِيمًا إِلَّا عَلَى الَّذِينَ وَفَّقَهُمُ اللهُ للإِيمَانِ بِهِ، وَبِأَنَّ مَا يُشَرِّعُهُ لِعِبَادِهِ إِنَّمَا يُشَرِّعُهُ لِحِكَمٍ بَالِغَةٍ.

-وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ بِاللهِ، وَمِنْهُ صَلَاتُكُمُ الَّتِي صَلَّيْتُمُوهَا قَبْلَ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ، إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ، فَلَا يَشُقُّ عَلَيْهِمْ، وَلَا يُضِيعُ ثَوَابَ أَعْمَالِهِمْ.

-قَدْ رَأَيْنَا – أَيُّهَا النَّبِيُّ – تَحَوُّلَ وَجْهِكَ وَنَظَرِكَ إِلَى جِهَةِ السَّمَاءِ، تَرَقُّبًا وَتَحَرِيًا لِنُزُولِ الْوَحْي بِشَأْنِ الْقِبْلَةِ وَتَحْوِيلِهَا إِلَى حَيْثُ تُحِبُّ، فلنُوَجِّهَنَّكَ إِلَى قِبْلَةٍ تَرْتَضِيهَا وَتُحِبُّهَا – وَهِيَ بَيْتُ اللهِ الْحَرَام – بَدَل بَيْتِ الْمَقْدِسِ الْآنَ. فَاصْرِفْ وَجْهَكَ إِلَى جِهَةِ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ بِمَكَّةَ الْمُكَرَّمَة،وَأَيْنَمَا كُنْتُمْ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – فَتَوَجَّهُوا إِلَى جِهَتِهِ عِنْدَ أَدَاءِ الصَّلَاةِ.

-وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لَيَعْلَمُونَ أَنَّ تَحْوِيلَ الْقِبْلَةِ هُوَ الْحَقُّ الْمُنَزَّلُ مِنْ خَالِقِهِمْ وَمُدَبِّرِ أَمْرِهِمْ؛ لِثُبُوتِهِ فِي كِتَابِهِمْ، وَلَيْسَ اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُ هَؤُلَاءِ الْمُعْرِضُونَ عَنِ الْحَقِّ، بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ عَالِمٌ بِذَلِكَ، وَسَيُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ.

-مُلَخَّصُ قِصَّةِ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ:

-مُلَخَّصُ قِصَّةِ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ثَبَتَ فِي الْقُرْآنِ ،كَمَا أَنَّهَا ثَبَتَتْ بِشَيءٍ مِنَ التَّفْصِيلِ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ .

-قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣) قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ}.(البقرة:١٤٢ –١٤٤) .



-وَأَخْرَجَ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ–رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى–فِي صَحِيحِهِ بِرَقَمِ (٤١) مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ–رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ– :{أَنَّ النَّبِيَّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– كَانَ أَوَّلَ مَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ نَزَلَ عَلَى أَجْدَادِهِ ، أَوْ قَالَ أَخْوَالِهِ مِنَ الأَنْصَارِ ، وَأَنَّهُ صَلَّى قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا ، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا ، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ البَيْتِ ، وَأَنَّهُ صَلَّى أَوَّلَ صَلاَةٍ صَلَّاهَا صَلاَةَ العَصْرِ، وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ صَلَّى مَعَهُ ، فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ مَسْجِدٍ وَهُمْ رَاكِعُونَ ، فَقَالَ: أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قِبَلَ مَكَّةَ ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ البَيْتِ ، وَكَانَتِ اليَهُودُ قَدْ أَعْجَبَهُمْ إِذْ كَانَ يُصَلِّي قِبَلَ بَيْتِ المَقْدِسِ ، وَأَهْلُ الكِتَابِ، فَلَمَّا وَلَّى وَجْهَهُ قِبَلَ البَيْتِ ، أَنْكَرُوا ذَلِكَ}.

-وَأَخْرَجَ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ–رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى–فِي صَحِيحِهِ بِرَقَمِ (٥٢٧) مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ بْنِ مَالِكٍ–رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ–:{أَنَّ رَسُولَ اللهِ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–كَانَ يُصَلِّي نَحْوَ بَيْتِ

الْمَقْدِسِ، فَنَزَلَتْ: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}.(البقرة:١٤٤)، فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ وَهُمْ رُكُوعٌ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَقَدْ صَلَّوْا رَكْعَةً ، فَنَادَى : أَلَا إِنَّ الْقِبْلَةَ قَدْ حُوِّلَتْ ، فَمَالُوا كَمَا هُمْ نَحْوَ الْقِبْلَةِ}

-وَأَخْرَجَ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ-رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-فِي صَحِيحِهِ أَيْضًا بِرَقَمِ (٥٢٦) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عُمَرَ-رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا- قَالَ:{بَيْنَمَا النَّاسُ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ بِقُبَاءٍ إِذْ جَاءَهُمْ آتٍ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-قَدِ أُنْزِلَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ ، وَقَدْ أُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةَ فَاسْتَقْبِلُوهَا ، وَكَانَتْ وُجُوهُهُمْ إِلَى الشَّامِ ، فَاسْتَدَارُوا إِلَى الْكَعْبَةِ }.



•فَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى الْمُسْلِمِينَ فِي بِدَايَةِ أَمْرِهِمْ أَنْ يَسْتَقْبِلُوا بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَامْتَثَلُوا أَمْرَ اللهِ تَعَالَى حَتَّى هَاجَرُوا مِنْ مَكَّةَ، وَلَمَّا هَاجَرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ مَكَثُوا عَلَى ذَلِكَ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، حَتَّى نَزَلَ نَسْخُ الْقِبْلَةِ.

•وَكَانَ مِنْ شِدَّةِ حُبِّ رَسُولِ اللهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-لاسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ أَنَّهُ كَانَ فِي الْفَتْرَةِ الْمَكِّيَّةِ يَجْعَلُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَيَكُونُ عِنْدَ صَلَاتِهِ قَدْ اسْتَقْبَلَهُمَا مَعًا، فَلَمَّا هَاجَرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ تَعَذَّرَ عَلَيْهِ ذَلِكَ،فَكَانَ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -يُقَلِّبُ بَصَرَهُ فِي السَّمَاءِ، يَرْجُو مِنَ اللهِ أَنْ يُحَوِّلَ قِبْلَتَهُمْ إِلَى الْكَعْبَةِ؛ وَذَلِكَ لِتَعَلُّقِ قَلْبِهِ بِأَبِيهِ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ إِبْرَاهِيمَ-عَلَيْهِ السَّلَامُ-الَّذِي أَقَامَ قَوَاعِدَ هَذَا الْبَيْتِ، وَلِحُبِّهِ الشَّدِيدِ لِهَذِهِ الْبُقْعَةِ؛ وَلأَنَّ الْكَعْبَةَ هِيَ أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ للنَّاسِ فِي الْأَرْضِ؛ وَلأَنَّهَا مَكَانُ اجْتِمَاعِ النَّاسِ فِي حَجِّهِمْ، فَحَقَّقَ اللهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-رَجَاءَهُ، وَحَوَّلَ قِبْلَةَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ،وَكَانَ ذَلِكَ فِي الْعَامِ الثَّانِي مِنَ الْهِجْرَةِ وَفِي شَهْرِ شَعْبَانَ عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ -قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ-رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-:{تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ فِي سَنَةِ ثِنْتَيْنِ مِنَ الْهِجْرَةِ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ ذَلِكَ فِي رَجَبٍ، مِنْ سَنَةِ ثِنْتَيْنِ، وَبِهِ قَالَ قَتَادَةُ

وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، وَقِيلَ: فِي شَعْبَانَ مِنْهَا، وَحَكَى هَذَا الْقَوْلَ ابْنُ جَرِيرٍ،قَالَ الْجُمْهُورُ الْأَعْظَمُ: إِنَّمَا صُرِفَتْ فِي النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ عَلَى رَأْسِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ شَهْرًا مِنَ الْهِجْرَةِ}؛(انظر: البداية والنِّهاية، لابن كثير :٣ /٣٠٩).

-وَلَمَّا نَزَلَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى:{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ }. (البقرة:١٤٤)،كَانَ ذَلِكَ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَشَرِقَتْ مِنْ ذَلِكَ قُلُوبُ الْيَهُودِ وَالْمُنَافِقِينَ.



-لِذَا كَانَ الْيَهُودُ يَحْسُدُونَنَا عَلَى الْقِبْلَةِ الَّتِي هَدَانَا اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهَا،فَقَدْ أخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ-رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-فِي الْمُسْنَدِ بِرَقَمِ(٢٥٠٢٩)مِنْ حَدِيثِ أُمِّ الْمُؤمِنِينَ عَائِشَةَ-رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا-قَالَتْ:بَيْنَا أنَا عِنْدَ النَّبِيِّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، إِذِ اسْتَأْذَنَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَأَذِنَ لَهُ، فَقَالَ:السَّامُ عَلَيْكَ،فَقَالَ النَّبِيُّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:{وَعَلَيْكَ، قَالَتْ: فَهَمَمْتُ أنْ أتَكَلَّمَ، قَالَتْ: ثُمَّ دَخَلَ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: وَعَلَيْكَ، قَالَتْ: ثُمَّ دَخَلَ الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: السَّامُ عَلَيْكَ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: بَلِ السَّامُ عَلَيْكُمْ،وَغَضَبُ اللهِ،إخْوَانَ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ،أتُحَيُّونَ رَسُولَ اللهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِمَا لَمْ يُحَيِّهِ بِهِ اللهُ؟ قَالَتْ:فَنَظَرَ إِلَيَّ، فَقَالَ:مَهْ، إنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التفَحُّشَ، قَالُوا قَوْلًا،فَرَدَدْنَاهُ عَلَيْهِمْ،فَلَمْ يَضُرَّنَا شَيءٌ، وَلَزِمَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، إِنَّهُمْ لَا يَحْسُدُونَا عَلَى شَيءٍ كَمَا يَحْسُدُونَا عَلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ الَّتِي هَدَانَا اللهُ لَهَا،وَضَلُّوا عَنْهَا،وَعَلَى الْقِبْلَةِ الَّتِي هَدَانَا اللهُ لَهَا، وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَى قَوْلِنَا خَلْفَ الْإِمَامِ: آمِينَ}.(وَالْحَدِيثُ:أخرجه البخاريُّ :٦٣٩٥، ومسلم :٢١٦٥ مختصراً باختلاف يسير).

•ثَانِيًا:دُرُوسٌ وَعِبَرٌ مِنْ حَادِثَةِ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ:

•مِنْ دُروسِ تَحْويلِ الْقِبْلَة:

(أ)إثْبَاتُ صِدْقِ النَّبِيِّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم–:

فَقَدْ أَخْبَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِمَا سَيَقُولُهُ أهْلُ الْكِتَابِ وَمَا يُثِيرُونَهُ مِنْ شُبُهَاتٍ وَأخْبَرَهُ بِدَحْضِ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ،فَقَالَ اللهُ تَعَالَى:{سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢)وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣)قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ}.(البقرة:١٤٤:١٤٢).



(ب)تَحْوِيلُ الْقِبْلَةِ دَلِيلُ وَسَطِيَّةِ الْأُمَّة:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ }.(البقرة:١٤٣).

–أيْ:وَكَمَا هَدَيْنَاكُمْ –أيُّهَا الْمُسْلِمُونَ– إلَى الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ فِي الدِّينِ، جَعَلْنَاكُمْ أمَّةً خِيَارًا عُدُولًا لِتَشْهَدُوا عَلَى الْأمَمِ فِي الْآخِرَةِ أنَّ رُسُلَهُمْ بَلَّغَتْهُمْ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ، وَيَكُون الرَّسُولُ فِي الْآخِرَةِ كَذَلِكَ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ أنَّهُ بَلَّغَكُمْ رِسَالَةَ رَبِّهِ.

وَمَا جَعَلْنَا –أيُّهَا الرَّسُولُ– قِبْلَةَ (بَيْتِ الْمَقْدِسِ) الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا، ثُمَّ صَرَفْنَاكَ عَنْهَا إِلَى الْكَعْبَةِ بـ (مَكَّةَ)، إِلَّا لِيَظْهَرَ مَا عَلِمْنَاهُ فِي الْأَزَلِ؛ عِلْمًا يَتَعَلَّقُ بِهِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ لِنُمَيِّزَ مَنْ يَتَّبِعُكَ وَيُطِيعُكَ وَيَسْتَقْبِلُ مَعَكَ حَيْثُ تَوَجَّهْتَ، وَمَنْ هُوَ ضَعِيفُ الْإِيمَانِ فَيَنْقَلِبُ مُرْتَدًّا عَنْ دِينِهِ لِشَكِّهِ وَنِفَاقِهِ. وَإِنَّ هَذِهِ الْحَالَ الَّتِي هِيَ تَحَوُّلُ الْمُسْلِمِ فِي صَلَاتِهِ مِنَ اسْتِقْبَالِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إِلَى اسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ لَثَقِيلَةٌ شَاقَّةٌ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَاهُمْ وَمَنَّ عَلَيْهِمْ بِالْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ بِهِ وَاتِّبَاعَكُمْ لِرَسُولِهِ، وَيُبْطِلَ صَلَاتَكُمْ إِلَى الْقِبْلَةِ السَّابِقَةِ. إِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ،

أيْ: شَدِيدُ الرَّحْمَةِ بِهِمْ عَظِيمُهَا، فَمِنْ رَأفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ، أنْ يُتِمَّ عَلَيْهِمْ نِعْمَتَهُ الَّتِي ابْتَدَأَهُمْ بِهَا، وَأنْ مَيَّزَ عَنْهُمْ مَنْ دَخَلَ فِي الْإِيمَانِ بِلِسَانِهِ دُونَ قَلْبِهِ،وَأنِ امْتَحَنَهُمْ امْتِحَانًا،زَادَ بِهِ إِيمَانُهُمْ، وَارْتَفَعَتْ بِهِ دَرَجَتُهُمْ، وَأنْ وَجَّهَهُمْ إِلَى أشْرَفِ الْبُيُوتِ، وَأجَلِّهَا.



–وَالْوَسَطِيَّةُ تَعْنِي الْأفْضَلِيَّةَ وَالْخَيْرِيَّةَ وَالرِّفْعَةَ؛ فَهِيَ حَسَنَةٌ بَيْنَ سَيِّئَتَيْنِ بَيْنَ إفْرَاطٍ وَتَفْرِيطٍ،فَالْأُمَّةُ الْمُسْلِمَةُ وَسَطٌ فِي كُلِّ شَيءٍ، فِي الْعَقِيدَةِ وَالشَّرِيعَةِ وَالْأخْلَاقِ وَالْمُعَامَلَاتِ، وَهَذَا وَاضِحٌ جِدًّا لِكُلِّ مَنْ دَرَسَ تَعَالِيمَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالسُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ الدين، فَاللهُ تَعَالَى اخْتَارَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ الْخَيْرَ فِي كُلِّ شَيءٍ وَالْأفْضَلَ فِي كُلِّ حُكْمٍ وَأمْرٍ وَمِنْ ذَلِكَ الْقِبْلَة فَاخْتَارَ لَهُمْ قِبْلَةَ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

(ج)تَحْوِيلُ الْقِبْلَةِ ابْتِلَاءٌ لأَهْلِ الْإِيمَانِ وَلِلمُنَافِقِين وَلأَهْلِ الْكِتَابِ،وَلِلمُشْرِكِينَ:

–فَأَمَّا أَهْلُ الْإِيمَانِ فَقَالُوا سَمِعْنَا وَأطَعْنَا.

–فَقَدْأخْرَجَ الْإمَامُ الْبُخَارِيُّ–رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى–فِي صَحِيحِهِ بِرَقَمِ (٤١) مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ–رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ– :{أَنَّ النَّبِيَّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– كَانَ أَوَّلَ مَا قَدِمَ

المَدِينَةَ نَزَلَ عَلَى أَجْدَادِهِ ، أَوْ قَالَ أَخْوَالِهِ مِنَ الأَنْصَارِ ، وَأَنَّهُ صَلَّى قِبَلَ بَيْتِ المَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا ، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا ، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ البَيْتِ ، وَأَنَّهُ صَلَّى أَوَّلَ صَلاَةٍ صَلَّاهَا صَلاَةَ العَصْرِ، وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ صَلَّى مَعَهُ ، فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ مَسْجِدٍ وَهُمْ رَاكِعُونَ ، فَقَالَ: أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قِبَلَ مَكَّةَ ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ البَيْتِ ، وَكَانَتِ اليَهُودُ قَدْ أَعْجَبَهُمْ إِذْ كَانَ يُصَلِّي قِبَلَ بَيْتِ المَقْدِسِ ، وَأَهْلُ الكِتَابِ، فَلَمَّا وَلَّى وَجْهَهُ قِبَلَ البَيْتِ ، أَنْكَرُوا ذَلِكَ}.

–وَأَخْرَجَ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ–رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى–فِي صَحِيحِهِ بِرَقَمِ (٥٢٧) مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ–رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ–:{أَنَّ رَسُولَ اللهِ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–كَانَ يُصَلِّي نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَنَزَلَتْ: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}.(البقرة:١٤٤)، فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ وَهُمْ رُكُوعٌ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَقَدْ صَلَّوْا رَكْعَةً ، فَنَادَى : أَلَا إِنَّ الْقِبْلَةَ قَدْ حُوِّلَتْ ، فَمَالُوا كَمَا هُمْ نَحْوَ الْقِبْلَةِ}



–وَأَخْرَجَ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ–رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى–فِي صَحِيحِهِ أَيْضًا بِرَقَمِ (٥٢٦) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عُمَرَ–رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا– قَالَ:{بَيْنَمَا النَّاسُ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ بِقُبَاءٍ إِذْ جَاءَهُمْ آتٍ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–قَدِ أُنْزِلَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ ، وَقَدْ أُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةَ فَاسْتَقْبِلُوهَا ، وَكَانَتْ وُجُوهُهُمْ إِلَى الشَّامِ ، فَاسْتَدَارُوا إِلَى الْكَعْبَةِ }.

–وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ فَقَالُوا:مَا يَدْرِي مُحَمَّدٌ أَيْنَ يَتَوَجَّهُ،إِنْ كَانَتِ الْأُولَى حَقًّا فَقَدْ تَرَكَهَا،وَإِنْ كَانَتِ الثَّانِيَةُ هِيَ الْحَقُّ فَقَدْ كَانَ عَلَى الْبَاطِلِ.

–وَأَمَّا أَهْلُ الْكِتَابِ فَقَالُوا :لَقَدْ خَالَفَ قِبْلَةَ الْأَنْبِيَاءَ مِنْ قَبْلِهِ،وَلَوْ كَانَ نَبِيًّا مَا خَالَفَ قِبْلَةَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلَهِ وَأَثَارُوا الشُّبُهَاتِ.

–وَأَمَّا الْمُشْرِكُونَ فَقَالُوا: كَمَا رَجَعَ إِلَى قِبْلَتِنَا يُوشِكُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى دِينِنَا، وَمَا رَجَعَ إِلَيْهَا إِلَّا أَنَّهُ الْحَقُّ.



(د)تَرْبِيَةُ الصَّفِ الْمُسْلِمِ عَلَى الإِخْلَاصِ للهِ تَعَالَى:

–فَقَدْ كَانَ الْعَرَبُ يُعَظِّمُونَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ، وَيُعِدّونَهُ عُنْوَانَ مَجْدِهِمْ الْقَوْمِيّ، فَأَرَادَ الإِسْلَامُ اسْتِخْلَاصَ الْقُلُوبِ للهِ وَتَجْرِيدَهَا مِنْ كُلِّ نَعْرَةٍ وَكُلِّ عَصَبِيَّةٍ غَيْرِ الإِسْلَامِ؛ كَالأَرْضِ، وَالتَّارِيخِ، وَالْعُنْصُرِيَّةِ،فَكَانَ الْأَمْرُ بِدَايَةً التَّوَجُّهَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ تَنْقِيَةً لِلنُّفُوسِ مِنَ الْعَصَبِيَّاتِ وَتَرْبِيَةً عَلَى الاسْتِجَابَةِ للَّهِ تَعَالَى وَلِرَسُولِهِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–لِتَتَجَرَّدَ الْقُلُوبُ للَّهِ تَعَالَى.

(هـ)بَيَانُ أَنَّ صِرَاعَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَعَ الْإِسْلَامِ صِرَاعُ عَدَاءٍ لَا جَهْلٍ:

–إِنَّ صِرَاعَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَعَ الْإِسْلَامِ صِرَاعُ عَدَاءٍ وَحِقْدٍ وَحَسَدٍ لَا صِرَاع جَهْلٍ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ}.(البقرة:٨٩).وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.(البقرة: ١٠٩).وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}.(البقرة:١٤٦).

–لِذَلِكَ بِمُجَرَّدِ عِلْمِهِمْ بِتَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ أَثَارُوا الشُّبُهَاتِ وَقَدْ قَصَّ الْقُرْآنُ ذَلِكَ وَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ رَسُولَهُ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–قَبْلَ أَنْ يَقَعَ لإِثْبَاتِ صِدْقِ

رِسَالَتِهِ،وَبَيَّنَ لَهُ الرَّدَّ عَلَى شُبُهَاتِهِمْ فَقَالَ تَعَالَى:{سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ}.(البقرة:١٤٢–١٤٣).



(و)وَمِنَ الدُّرُوسِ جَوَازُ الْقَطْعِ بِخَبَرِ الْوَاحِدِ:

–وَذَلِكَ أنَّ اسْتِقْبَالَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ كَانَ مَقْطُوعًا بِهِ مِنَ الشَّرِيعَةِ عِنْدَهُمْ ، ثُمَّ إِنَّ أَهْلَ قُبَاء لَمَّا أَتَاهُمْ الْآتِي وَأَخْبَرَهُمْ أنَّ الْقِبْلَةَ قَدْ حُوِّلَتْ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ قَبِلُوا قَوْلَهُ وَاسْتَدَارُوا نَحْوَ الْكَعْبَةِ.

–أَخْرَجَ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ–رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى–فِي صَحِيحِهِ بِرَقَمِ (٤١) مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ–رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ– :{أَنَّ النَّبِيَّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– كَانَ أَوَّلَ مَا قَدِمَ المَدِينَةَ نَزَلَ عَلَى أَجْدَادِهِ ، أَوْ قَالَ أَخْوَالِهِ مِنَ الأَنْصَارِ ، وَأَنَّهُ صَلَّى قِبَلَ بَيْتِ المَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا ، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا ، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ البَيْتِ ، وَأَنَّهُ صَلَّى أَوَّلَ صَلاَةٍ صَلَّاهَا صَلاَةَ العَصْرِ، وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ صَلَّى مَعَهُ ، فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ مَسْجِدٍ وَهُمْ رَاكِعُونَ ، فَقَالَ: أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قِبَلَ مَكَّةَ ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ البَيْتِ ، وَكَانَتِ اليَهُودُ قَدْ أَعْجَبَهُمْ إِذْ كَانَ يُصَلِّي قِبَلَ بَيْتِ المَقْدِسِ ، وَأَهْلُ الكِتَابِ، فَلَمَّا وَلَّى وَجْهَهُ قِبَلَ البَيْتِ ، أَنْكَرُوا ذَلِكَ}.

–وَأَخْرَجَ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ–رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى–فِي صَحِيحِهِ بِرَقَمِ (٥٢٧) مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ–رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ–:{أَنَّ رَسُولَ اللهِ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–كَانَ يُصَلِّي نَحْوَ بَيْتِ

الْمَقْدِسِ، فَنَزَلَتْ: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}.(البقرة:١٤٤)، فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ وَهُمْ رُكُوعٌ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَقَدْ صَلَّوْا رَكْعَةً ، فَنَادَى : أَلَا إِنَّ الْقِبْلَةَ قَدْ حُوِّلَتْ ، فَمَالُوا كَمَا هُمْ نَحْوَ الْقِبْلَةِ}.

-وَأَخْرَجَ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ-رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-فِي صَحِيحِهِ أَيْضًا بِرَقَمِ (٥٢٦) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عُمَرَ-رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا- قَالَ:{بَيْنَمَا النَّاسُ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ بِقُبَاءٍ إِذْ جَاءَهُمْ آتٍ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-قَدِ أُنْزِلَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ ، وَقَدْ أُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةَ فَاسْتَقْبِلُوهَا ، وَكَانَتْ وُجُوهُهُمْ إِلَى الشَّامِ ، فَاسْتَدَارُوا إِلَى الْكَعْبَةِ }.

-وَ قَبُولُ خَبَرِ الْوَاحِدِ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ مِنَ السَّلَفِ مَعْلُومٌ بِالتَّوَاتُرِ مِنْ عَادَةِ النَّبِيِّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-فِي تَوْجِيهِهِ وُلَاتِهِ وَرُسُلِهِ آحَادًا للآفَاقِ ، لِيُعَلِّمُوا النَّاسَ دِينَهُمْ فَيُبَلِّغُوهُمْ سُنَّةَ رَسُولِهِمْ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي،وَفِي ذَلِكَ دَلِيل أَنَّ الصَّحَابَةَ-رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ-كُلَّهُمْ عُدُولٌ.



(ز)وَمِنَ الدُّرُوسِ أَنَّ مَنْ لَمْ يَبْلُغْهُ النَّاسِخُ إِنَّهُ مُتَعَبَّدٌ بِالْحُكْمِ الْأَوَّلِ:

-وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ النَّاسِخَ لَا يَلْزَم حُكْمُهُ إِلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ بِهِ ، وَإِنْ تَقَدَّمَ نُزُولُهُ وَإِبْلَاغُهُ ؛ لأَنَّهُمْ لَمْ يُؤمَرُوا بِإِعَادَةِ الْعَصْرِ وَالْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ.

(ح)وَمِنْهَا:أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنْسَخُ حُكْمًا إِلَّا إِلَى مَا هُوَ أَفْضَل مِنْهُ أَوْ مِثْله:

-قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ}.(البقرة:١٠٦).

-وَالنَّسْخُ: هُوَ النَّقْلُ، فَحَقِيقَةُ النَّسْخِ نَقْلُ الْمُكَلَّفِينَ مِنْ حُكْمٍ مَشْرُوعٍ، إِلَى حُكْمٍ آخَر، أَوْ إِلَى إِسْقَاطِهِ، وَكَانَ الْيَهُودُ يُنْكِرُونَ النَّسْخَ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ، وَهُوَ مَذْكُورٌ عِنْدَهمْ فِي التَّوْرَاةِ، فَإِنْكَارُهُمْ لَهُ كُفْرٌ وَهَوى مَحْضٌ. فَأَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْ حِكْمَتِهِ فِي النَّسْخِ، وَأَنَّهُ مَا يَنْسَخ مِنْ آيَةٍ { أَوْ نُنْسِهَا } أيْ: نُنْسِهَا الْعِبَاد، فَنُزِيلُهَا مِنْ قُلُوبِهِمْ، { نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا } وَأنْفع لَكُمْ { أَوْ مِثْلِهَا } فَدَلَّ عَلَى أنَّ النَّسْخَ لَا يَكُونُ لأقَلِّ مَصْلَحَةٍ لَكُمْ مِنَ الْأَوَّلِ؛ لأنَّ فَضْلَهُ تَعَالَى يَزْدَاد خُصُوصًا عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ، الَّتِي سَهَّلَ عَلَيْهَا دِينَهَا غَايَةَ التَّسْهِيلِ.

(ط)وَمِنْهَا:أَنَّ ارْتِبَاطَ مَنَاسِكَ الْحَجِّ بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ وَبِالْكَعْبَةِ الْمُشَرَّفَةِ فَنَاسَبَهُ أَنْ يَكُونَ التَّوَجُّهُ بِالصَّلَاةِ إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي تَكُونُ فِيهِ وَحَوْلَهُ الْمَنَاسِكُ.



(ك)وَمِنْهَا:إِظْهَارُ حِرْصِ الْمُؤْمِنِ عَلَى أَخِيهِ وَحُبِّ الْخَيْرِ لَهُ:

-فَحِينَمَا نَزَلَتْ الْآيَاتُ الَّتِي تَأْمُرُ الْمُؤْمِنِينَ بِتَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ إِلَى الْكَعْبَةِ، تَسَاءَلَ الْمُؤْمِنُونَ عَنْ مَصِيرِ عِبَادَةِ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا وَقَدْ صَلَّوا نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَأَخْبَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ صَلَاتَهُمْ مَقْبُولَةٌ .قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ}.(البقرة:١٤٣).

-وَأخْرَجَ الْإِمَامُ التِّرْمِذِيُّ–رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى–فِي سُنَنِهِ بِرَقْمِ(٢٩٦٤)مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ–رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا–قَالَ :{لَمَّا وُجِّهَ النَّبِيُّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إِلَى الْكَعْبَةِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ بِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ يُصَلُّونَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى:{ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ }.(البقرة:١٤٣).يَعْنِي صَلَاتَكُمْ}.

-وَقَدْ أكَّدَ الْقُرْآنُ عَلَى عَقْدِ الْأُخُوَّةِ الْإِيمَانِيَّةِ

فَقَالَ اللهُ تعَالَى:{إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}.(الْحُجُرات:١٠).

-قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ-رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-

فِي تَفْسِيرِهَا:{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ } هَذَا عَقْدٌ، عَقَدَهُ اللهُ بَيْنَ الْمُؤمِنِينَ، أنَّهُ إذَا وُجِدَ مِنْ أيِّ شَخْصٍ كَانَ، فِي مَشْرِقِ الْأَرْضِ وَمَغْرِبِهَا، الْإِيمَانُ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَإِنَّهُ أَخٌ للمُؤمِنِينَ، أخُوَّة تُوجِبُ أنْ يُحِبَّ لَهُ الْمُؤمنُونَ، مَا يُحِبُّونَ لأنْفُسِهِمْ، وَيَكْرَهُونَ لَهُ، مَا يَكْرَهُونَ لأنْفُسِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم آمِرًا بِحُقُوقِ الْأُخُوَّةِ الْإِيمَانِيَّةِ: { لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا يَبِعْ أحَدُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إخْوَانًا الْمُؤْمِنُ أخُو الْمُؤمِنِ، لَا يَظْلِمُه، وَلَا يَخْذُلهُ، وَلَا يَحْقِرهُ}.،وَقَالَ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:{الْمُؤمِنُ للمُؤمِنِ، كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ/ بَيْنَ أصَابِعِهِ}.

-وَأكَّدَهَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-،-فَقَدْ أخْرَجَ الشَّيْخَانِ الْبُخَارِيُّ بِرَقَمِ(٦٠١١)وَمُسْلِمٌ بِرَقَمِ(٢٥٨٦)وَاللَّفْظُ لَهُ مِنْ حَدِيثِ النُّعْمَان بْنِ بَشِيرٍ-رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا-قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:{مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ ، وَتَرَاحُمِهِمْ ، وَتَعَاطُفِهِمْ . مَثَلُ الْجَسَدِ إذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى}.

(ل)وَمِنْهَا:مُخَالَفَةُ أهْلِ الْكِتَابِ:

-فَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -يُرِيدُ أنْ يَتَوَجَّهَ فِي صَلَاتِهِ إلَى الْكَعْبَةِ، وَكَانَ حَرِيصًا عَلَى أنْ يَكُونَ مُتَمَيِّزًا عَنْ أهْلِ الْكِتَابِ، الَّذِينَ حَرَّفُوا وَبَدَّلُوا وَغَيَّرُوا ، وَلِهَذَا كَانَ يَنْهَى عَنْ تَقْلِيدِهِمْ وَالتَّشَبُّهِ بِهِمْ، بَلْ يَأمُرُ بِمُخَالَفَتِهِمْ، وَيُحَذِّرُ مِنَ الْوُقُوعِ فِيمَا وَقَعُوا فِيهِ مِنَ

الزَّلَلِ وَالانْحِرَافِ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَ مِنْ مُقْتَضَى هَذَا الْحِرْصِ أنْ يُخَالِفَهُمْ فِي قِبْلَتِهِمْ، وَيَتَوَجَّهَ فِي صَلَاتِهِ بِشَكْلٍ دَائِمٍ إلَى قِبْلَةِ أَبِي الْأَنْبِيَاءِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَهُوَ أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ للنَّاسِ، وَهَذَا

هُوَ الَّذِي كَانَ يَرْجُوهُ رَسُولُ اللهِ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– .

–فَجَاءَ تَحْوِيلُ الْقِبْلَةِ يُؤسّسُ لِمَبْدَإ (التَّمَايُز)؛ أيْ: تَمَايُز الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ عَنْ غَيْرِهَا فِي كُلِّ شَيءٍ: فِي الرِّسَالَةِ، وَالتَّشْرِيعِ وَالْمَنْهَجِ، وَالْأَخْلَاقِ وَالسُّلُوكِ، وَقَبْلَ كُلِّ ذَلِكَ التَّمَايُزُ فِي الاعْتِقَادِ.



(م)وَمِنْهَا:بَيَانُ مَكَانَةِ النَّبِيِّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ– وَمَنْزِلَتِهِ عِنْدَ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

–قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ}.(البقرة:١٤٤)

–أيْ:قَدْ نَرَى تَحَوُّلَ وَجْهِكَ –أيُّهَا الرَّسُولُ– فِي جِهَةِ السَّمَاءِ، مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ؛ انْتِظَارًا لِنُزُولِ الْوَحْيِ إلَيْكَ فِي شَأنِ الْقِبْلَةِ، فَلَنَصْرِفَنَّكَ عَنْ(بَيْتِ الْمَقْدِسِ) إلَى قِبْلَةٍ تُحِبُّهَا وَتَرْضَاهَا، وَهِيَ وجْهَةُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بـ (مَكَّةَ)، فَوَلِّ وَجْهَكَ إلَيْهَا. وَفِي أيِّ مَكَانٍ كُنْتُمْ –أيُّهَا الْمُسْلِمُونَ– وَأرَدتُمْ الصَّلَاةَ فَتوَجَّهُوا نَحْوَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ. وَإنَّ الَّذِينَ أعْطَاهُمُ اللهُ عِلْمَ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لَيَعْلَمُونَ أنَّ تَحْوِيلَكَ إلَى الْكَعْبَةِ هُوَ الْحَقُّ الثَّابِتُ فِي كُتُبِهِمْ. وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُ هَؤلَاءِ الْمُعْتَرِضُونَ الْمُشَكِّكُونَ، وَسَيُجَازِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ.

•اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا،وَاسْرَافَنَا فِي أمْرِنَا،وَاسْتُرْ عَوْرَاتِنَا،وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا،

وَأصْلِحْ لَنَا نِسَاءَنَا،وَرَبِّ لَنَا أوْلَادنَا،

وَاجْعَلْهُمْ قُرَّةَ عَيْنٍ لَنَا،وَاجْعَلْهُمْ صَالِحِينَ مُصْلِحِينَ، آتِ نُفُوسَنَا تَقْوَاهَا،وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا،أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا،وَفَرِّجْ كَرْبَ أَهْلِنَا فِي فِلَسْطِينَ،وَاجْعَلْ بَلَدَنَا مِصْرَ أَمْنًا أَمَانًا،سَخَاءً رَخَاءً،وَسَائِرَ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ

،وَصَلِّ اللهُمَّ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَأَتْبَاعِهِ وَسَلِّمْ.

• كَتَبَهُ:

خَادِمُكُمْ وَمُحِبُّكُمْ فِي اللَّهِ أَبُو أَحْمَد سَيِّد عَبْد الْعَاطِي بْن مُحَمَّد الذَّهَبِيُّ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَعَفَا عَنْهُ.

تمت بحمد الله

مع تحيات

موسوعة اعرف دينك للعلوم الشرعية

